**المبحث الأول:**

**الحالة السياسية والفكرية:**

عاصر أبن خطيب الدهشة عهد دول المماليك بشقيها:

دولة المماليك البحرية والتي امتد حكمها بين سنتي 648هـ- 784هـ.

ودولة المماليك الجراكسة والتي امتد حكمها بين سنتي 784هـ- 922هـ.

فقد استطاع المماليك بناء دولة قوية كان لها الفضل في وقف المد التتري ومنعه من العبور إلى الغرب الإسلامي وإجلاء آخر صليبي عن الأرض العربية الإسلامية وذلك من خلال الحملات المتكررة التي قادها الظاهر بيبرس بين سنتي 663- 665هـ، والمنصور قلاوون بين سنتي 684- 688هـ وغيرهم من السلاطين حيث تمكن الأشرف خليل سنة 690هـ من القضاء على آخر معاقلهم في فلسطين والشام فلم يعد لهم وجود على الأرض الإسلامية. فقد استطاعوا أول الأمر كسر شوكة المغول في عين جالوت سنة 658هـ، ثم تمكنوا من صدّ الحملة التي قادها السلطان محمود غازان منذ سنة 699هـ إذ تمكنوا من هزيمته في وقعة شقحب سنة 702هـ.

ومع هذا فقد مرت بهذه الدولة فترات ضَعف كثرت فيها الفتن ولم يكن خافياً صراع الأمراء على السلطة بل كان في بعض الأحيان على أشده بين السلاطين والأمراء وقواد الجيش، والكل يريد الظفر به، نلاحظ ذلك من تولية الصغار والقاصرين دفّة الحكم طمعاً من الأمراء بالفوز بالوصاية عليهم، وبالتالي السيطرة على الدولة، فقد تولى الحكم بعد السلطان عز الدين أيبك ابنه نور الدين علي([[1]](#footnote-2)) بن عز الدين وعمره لم يجاوز خمس عشرة سنة (655هـ)، فدبّر أمره نائب أبيه الأمير سيف الدين قطز، ثم خلعه يوم السبت رابع عشري ذي القعدة سنة 657هـ([[2]](#footnote-3))، فكانت مدته سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام، وكذلك الملك بدر الدين سلامش([[3]](#footnote-4)) ابن الظاهر بيبرس، فقد تولى السلطنة سنة 678هـ بعد خلع أخيه الملك السعيد محمد بن الظاهر بيبرس([[4]](#footnote-5))، غير أن السلطنة لم تدم له سوى مئة يوم، فخلعه الأمير قلاوون وأودعه السجن مع أخيه بركة([[5]](#footnote-6)). أما الملك المظفر سيف الدين قطز فما أن عاد منتصراً في عين جالوت([[6]](#footnote-7)) في رمضان سنة 658هـ يريد مصر حتى قتله الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري في ذي القعدة من السنة نفسها([[7]](#footnote-8)).

ولو تصفحنا تاريخ السلاطين البحرية والجراسكة نجد أن هناك الكثير منهم لم تتجاوز مدة حكمهم السنة والسنتين، بل الشهر والشهرين، مما يعني عدم استقرار الدولة سياسياً واضطرابها، ولم تكن دولة الجراكسة أحسن حالاً من نظيرتها، وبخلاف ذلك فقد امتد حكم بعض السلاطين لأكثر من عشر سنين كالسلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحي، فقد حكم مصر إحدى عشرة سنة، امتدت بين سنتي 678هـ إلى سنة 689هـ([[8]](#footnote-9))، واستمرت الدولة البحرية حتى استولى السلطان الظاهر برقوق بن آنص على السلطنة سنة 784هـ، وكانت مدته أتابكاً وسلطاناً إحدى وعشرين سنة وعشرة أشهر، خلع منها ثمانية أشهر،واستمرت دولة الجراكسة حتى مقدم العثمانيين([[9]](#footnote-10)) ودخولهم القاهرة بعد موت السلطان الغوري ثم السطان طومان باي سنة 923هـ.

وقد عاصر ابن خطيب الدهشة عددًا من سلاطين البحرية، وهم: السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون([[10]](#footnote-11)) الذي تولى السلطنة سنة ثمان وأربعين وسبع مئة بعد مقتل أخيه السلطان المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون، ثم خلع الناصر حسن في سابع عشر من جمادى الآخرة واعتقل وسلطنوا أخاه صلاح الدين صالحاً في سنة اثنتين وخمسين وسبع مئة([[11]](#footnote-12))، وفي سنة خمس وخمسين وسبع مئة أعيد الناصر حسن للسلطة، وأنتهت مدته وزالت دولته بتولية المنصور محمد بن المظفر حاجي ابن أخي الناصر الذي نصب سلطاناً سنة اثنتين وستين وسبع مئة وهو مراهق أو دون ذلك([[12]](#footnote-13))، وخلع في شعبان سنة أربع وستين وسبع مئة([[13]](#footnote-14))، والأشرف شعبان ابن الأمير الأمجد حسين بن الناصر محمد ابن المنصور، وهو ابن عشر سنين([[14]](#footnote-15)) واستمر حتى قتل سنة ثما وسبعين وسبع مئة([[15]](#footnote-16))، وملك بعده ابنه السلطان علي ابن الأشرف شعبان بن الأمجد حسين، وقد عين سلطاناً خلفاً لوالده وهو ابن ثماني سنين([[16]](#footnote-17))، وفي سنة ثلاث وثمانين وسبع ومئة استقر بالملك أبو الجود أمير حاج ابن الأشرف شعبان خلفاً لأخيه في سنة نفسها([[17]](#footnote-18))، وبه انتهت دولة البحرية سنة أربع وثمانين وسبع مئة.

وبداية دولة الجراكسة التي ابتدأها الظاهر برقوق ابن آنص الجركسي المتوفى سنة إحدى وثمان مئة الذي كان نائباً للسلطان علي بن الأشرف ثم السلطان أبي الجود أمير حاج وكان الحكم بيده وليس لهما إلا الاسم([[18]](#footnote-19))، واستمر بالحكم اثنتين وعشرين سنة، واستقر بعد موته مكانه ابنه الناصر فرج بن الظاهر برقوق([[19]](#footnote-20))، وبويع بعده للمؤيد أبي النصر شيخ بن عبد الله المحمودي([[20]](#footnote-21)) بعد خلع الناصر وقتله سنة خمس عشرة وثمان مئة([[21]](#footnote-22))، وفي سنة أربع وعشرين وثمان مئة مات السلطان المؤيد([[22]](#footnote-23))، واستقر مكانه ابنه المظفر أحمد أبو السعادات، وهو ابن سنة ونصف([[23]](#footnote-24))، ثم خلع ونصِّب الظاهر طَطَر أبو الفتح سلطاناً بعد خلع المظفر لصغر سنه وقلة حيلته([[24]](#footnote-25))، وتوفي الظاهر في السنة([[25]](#footnote-26)) نفسها، وبويع لابنه، ولقب بالصالح محمد بن الظاهر ططر، وهو ابن تسع أو عشر سنين([[26]](#footnote-27))، وفي السنة التي بعدها خلع الصالح محمد([[27]](#footnote-28)) واستقر مكانه النظام أبو نصر برسباي الدقماقي، ولقب بالأشرف([[28]](#footnote-29))، واستمر بالحكم حتى سنة إحدى وأربعين وثمان مئة([[29]](#footnote-30)).

ولكن وعلى الرغم من عدم الاستقرار السياسي والاضطرابات الداخلية والخارجية، إلا أنا نلاحظ ازدهار الحركة العلمية وتطورها وذلك أن الصفة العامة للسلاطين كانت هي دعم العلم والعلماء، وإن كانت في بعض الأحيان لأغراض سياسية. وهذا الدعم ولّد استقراراً في هذا الجانب مما أدى به إلى التقدم والازدهار، ولو نظرنا إلى العلماء الذين ظهروا في هذه الفترة لوجدنا أن منهم أعلاماً مبرزين ، إذ كانت مصر والشام قد أصبحت بعد سقوط بغداد بيد التتر مركز الحركة الفكرية في العالم الإسلامي، فكثر فيها إنشاء المساجد ودور العلم والمدارس وتخصيص الأوقاف التي تدر الأموال التي تعين القائمين عليها وطلبتها على العلم والاستمرار عليه. وسط كل هذه الإيجابيات والسلبيات ولد وعاش ابن خطيب الدهشة رحمه الله.

1. () البداية والنهاية لابن كثير: 13/ 211، والخطط للمقريزي: 3/ 93، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 7/ 41. [↑](#footnote-ref-2)
2. () البداية والنهاية لابن كثير: 13/ 229، والخطط للمقريزي: 3/ 93، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 7/ 72. [↑](#footnote-ref-3)
3. () البداية والنهاية لابن كثير: 13/ 305، والخطط للمقريزي: 3/ 93، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 7/ 286. [↑](#footnote-ref-4)
4. () البداية والنهاية لابن كثير: 13/ 305، والخطط للمقريزي: 3/93، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 7/ 83- 84. [↑](#footnote-ref-5)
5. () النجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 7/ 278. [↑](#footnote-ref-6)
6. () البداية والنهاية لابن كثير: 13/ 233، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 7/ 78- 79 وكانت سنة 658هـ. [↑](#footnote-ref-7)
7. () البداية والنهاية لابن كثير: 13/ 235، والخطط للمقريزي: 3/ 93، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 7/ 83- 84. [↑](#footnote-ref-8)
8. () البداية والنهاية لابن كثير: 13/ 305، 336، والخطط للمقريزي: 3/ 93، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 7/ 293. [↑](#footnote-ref-9)
9. () الخطط التوفيقية لعلي مبارك: 1/ 56. [↑](#footnote-ref-10)
10. () ينظر: الدرر الكامنة لابن حجر: 2/ 83، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 10/ 156، ووجيز الكلام: 1/ 30- 31. [↑](#footnote-ref-11)
11. () ينظر: وجيز الكلام للسخاوي: 1/ 56- 57. [↑](#footnote-ref-12)
12. () السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي: 3/ 64، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 11/ 3، والضوء اللامع للسخاوي: 7/ 216، ووجيز الكلام: 1/ 114- 115، وشذرات الذهب لابن العماد: 6/ 200. [↑](#footnote-ref-13)
13. () النجوم الزاهرة لابن تغري بردي:11/ 6، ووجيز الكلام للسخاوي: 1/ 131، وشذرات الذهب لابن العماد: 6/ 200. [↑](#footnote-ref-14)
14. () السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي: 3/ 83. [↑](#footnote-ref-15)
15. () إنباء الغمر لابن حجر: 1/ 222- 223، والسلوك للمقريزي: 3/ 281، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 11/ 75- 76، ووجيز الكلام للسخاوي: 1/ 222- 223. [↑](#footnote-ref-16)
16. () السلوك للمقريزي: 3/ 284، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 11/ 148، والضوء اللامع للسخاوي: 5/ 231. [↑](#footnote-ref-17)
17. () إنباء الغمر لابن حجر: 2/ 45، والسلوك للمقريزي: 3/ 439، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 11/ 206، ووجيز الكلام للسخاوي: 1/ 254. [↑](#footnote-ref-18)
18. () إنباء الغمر لابن حجر: 4/ 50، والسلوك للمقريزي: 3/ 476، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 11/ 215، ووجيز الكلام للسخاوي: 1/ 260. [↑](#footnote-ref-19)
19. () إنباء الغمر لابن حجر: 4/ 53، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 12/ 168، 13/ 5، والضوء اللامع للسخاوي: 3/ 10، ووجيز الكلام: 1/ 334- 336. [↑](#footnote-ref-20)
20. () النجوم الزاهرة: 14/ 1، والضوء اللامع للسخاوي: 3/ 308، ووجيز الكلام: 2/ 419، وشذرات الذهب لابن العماد: 7/ 164. [↑](#footnote-ref-21)
21. () إنباء الغمر لابن حجر: 7/ 56- 58، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 13/ 147- 149. [↑](#footnote-ref-22)
22. () إنباء الغمر لابن حجر: 7/ 435- 436، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 14/ 109. [↑](#footnote-ref-23)
23. () السلوك للمقريزي: 4/ 563، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 14/ 167. [↑](#footnote-ref-24)
24. () السلوك للمقريزي: 4/ 582، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 14/ 196. [↑](#footnote-ref-25)
25. () إنباء الغمر لابن حجر: 7/ 432- 438، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 14/ 206- 207، والضوء اللامع للسخاوي: 4/ 7. [↑](#footnote-ref-26)
26. () النجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 14/ 211، ووجيز الكلام للسخاوي: 2/ 465- 467. [↑](#footnote-ref-27)
27. () النجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 14/ 232- 233. [↑](#footnote-ref-28)
28. () السلوك للمقريزي: 4/ 607، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 14/ 242، ووجيز الكلام للسخاوي: 2/ 471. [↑](#footnote-ref-29)
29. () السلوك للقمريزي: 4/ 1047- 1049، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 15/ 106- 107، ووجيز الكلام للسخاوي: 2/ 554، والضوء اللامع: 3/ 8. [↑](#footnote-ref-30)